عضوي في الكليتين لا يخلو من الخطر ولذلك فهذا المرض غير سهل العافية في الغالب

علاجهُ. احسن وسائط المعالجة وضع المريض في غرفة حرارتها تعادل حرارة جسمهِ بعيداً عن تجاري الهواء وقد مدح بعضهم الاتجاه الى وضع الدود (العلق) او الحجامة فوق الكليتين ولكن يجب اجتناب ذلك متى كان المريض ضعيفاً انيمياً ويستعاض عنها اذ ذاك بالحجامة الجافة. ومن اهم الامور التي يجب الانتباه لها مدة المعالجة هي السعي في ارجاع وظيفة الجلد اي جعل الجلد يفرز عرقاً حتى يخف العمل عن الكليتين فيكون لها فرصة لاصلاح ما اختل بانسجتها لاسيما وان افراز العرق يزيل من الدم بعض اليوريا ويخفف الماء منهُ ومن المرتشح في النسيج الخلوي فيساعد على ازالة الاديما. اما الوسائط التي تساعد على ذلك فهي الحمامات الهوائية او المائية الحمة مع استعمال الصوف الخ. ولا بأس من استعمال المفرقات نظير املاح البوتاسا

اما المأكل فلا يجوز فيهِ غير اللبن والمواد النشائية ومعلوم ان شرب اللبن وحدهُ دون سواهُ وبكمية كبيرة هو انفع شيء لهذا المرض بل قد يغني عن كل علاج . ويعطى المريض من وقت الى آخر مسهلاً للتحويل وتعالج الاعراض حسب ظهورها وطبائعها

(وسيأتي الكلام مختصراً عن مرض يوبط المزمن في الجزء التالي)

التبر المسبوك في ذيل السلوك

للبحاري

لقد صدق من قال "ومن درى اخبار من قبلهُ . اضاف اعماراً الى عمرهِ" ولذلك عني الناس بكتابة التواريخ وحفظها لا للتفكه باخبارها بل للاسترشاد بحوادثها . ولو سلمت كتب المؤرخين من معرّات الخطإ والخطل التي فصّلها الفيلسوف هربرت سبنسر على ما ذُكر في المقالات الملخصة عنهُ في هذا الجزء والاجزاء الماضية لكانت خير مرشد في سُبُل الحياة ولأغنت الناس عن اكثر القوانين

ولما نظرنا في احوال القطر المصري والقطر الشامي وتعجبنا من الانحطاط الذي تولاهما منذ خمسة عشر قرناً الى الآن . لكل معالم الحضارة التي شيدت فيهما وكل اسباب العمران التي بسطت رواقها عليهما وكل مظاهر المجد والسؤدد التي تبدو دلائلها من خلال تاريخهما فارقتهما في هذه القرون ولم يكد يبقى منها شيء الى عصرنا هذا الا ما يُرى مدفوناً في الرموس او مبثوثاً في انقاض الهياكل والانصاب

وقد يقال ان البلاد تسعد وتشقى في ادوار تتداول وان للامم آجالاً فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . وهذا حق لا ريب فيهِ ولكن ما حدث في القطر المصري منذ عشرين عاماً الى الآن يدل دلالة ثابتة على ان ما حلَّ بهِ من الشقاء قبل ذلك عرضي ناتج عن اسباب مفارقة يزول بزوالها . وان السعادة ميسورة لهُ الآن كما كانت ميسورة في ايام الفراعنة والقياصرة . وعندنا ان هذا شأن القطر الشامي ايضاً وانهُ سيحول بضعة عشر مليوناً من السكان كما كان منذ الفي عام ولو انحطَّ عدد سكانهِ الآن الى اقل من مليونين . وتُبنى فيهِ مباني تفاخر تدمر وجرش وبعلبك وتجاري سفنهُ سفن الانكليز والفرنسويين كما كانت في عهد الفينيقيين

اما الرزايا الغير الَّتي حلَّت بهذين القطرين وفرضت سكانهما واودت بعمرانهما فلا تفتح كتاباً من كتب التاريخ حتى ترى آثارها فيهِ ولا سيما حيث يذكرها الكاتب عفواً غير متقيد لرَدِّها كما في كتاب السخاوي المفتوح امامنا الآن

والسخاوي عالم من سخا قرية من قرى مصر ولد سنة ٨٣١ للهجرة وتوفي سنة ٩٠٢ وذكر تاريخ الحوادث الَّتي حدثت في عصره من سنة ٨٤٥ الى سنة ٨٥٧ مدة اثني عشرة سنة في كتاب سماهُ الدر المسبوك في ذيل السلوك وقد وُجِدَت نسخة منهُ خطَّت سنة ١٠٥٣ فاستنسخهُ حضرة الفاضل جلياردو بك صاحب مجلة مصر الفرنسوية وطبعهُ فيها ثم جمعهُ على حدة فجاء كتاباً كبيراً في ٤٣٢ صفحة

ومعلوم ان اثني عشرة سنة قد تمضي ولا يحدث فيها حادث يذكر او قد يُغفِل مؤرخها ذكر الحوادث الَّتي تدلُّ على ما نحن فيهِ . ولا نظن ان السنين الَّتي ارَّخها السخاوي كانت اوفر من غيرها في مزعجات الجامعة الوطنية وفاتحات سموم التعصُّب وناشرات رواق الخراب ولكن الحوادث التي وقعت فيها وجاء المؤلف على ذكرها تكفي لتدمير ارقى البلدان عمراناً . وهاك شيئاً منها مثالاً على ما بقي . وقد اوجزنا قبلاً في ما اقتبسناهُ منهُ

ذكر في حوادث سنة ٨٤٥ انهُ وجد في احدى كنائس الملكيين دعائم بالحجر النحيت مثل الاعمدة فادَّعوا انها كانت ذات اعمدة رخام فاحترقت في الحريق الذي حدث سنة ٧٣٠ وزعموا ان بيدهم لها محضراً ثبت على يد القاضي جلال الدين القزويني صاحب تلخيص المفتاح وقاضي الديار المصرية في الدولة الناصرية واذن في مرمتها فرمموها بالحجارة وفي دون الرخام فاصاب النصارى بسبب ذلك " من الذل والخزي والاهانة والتغريم ما يفوق الوصف لاجل ما وجد داخل هذه الكنيسة من الاعمدة والاكتاف الجدد بالحجارة النحونة وختم عليها وعلى كل الكنائس بمصر والقاهرة لوجود التجديد في جميعها وحيل بينهم وبين

الدخول اليها بقيام الامير الانصراي جوزي خيرًا " و يلي ذلك كلام كثير عن امتهان اليهود اذا ذُكر فيهِ دينهم لُقّب " بالخبيث " ثم وُصفوا بهذه الاوصاف البديعة وهي انهم " اقل واحقر واذلّ وافقر واتن واقذر الى غير ذلك مما هو اشهر من ان ينقل و يؤثر " ثم قال " و بعد ما تقدّم من امر اليهود والنصارى رسم السلطان بعقد مجلس بحضرتهِ بالقلعة الابرجة وغيرهم من مشايخ الاسلام واركان الدولة وأُحضِر موسى بطريك النصارى اليعقوبية وفيلوثاؤس بطريك الملكيين وعبد اللطيف من طائفة اليهود الربانيين وفرج الله احد مشايخ اليهود القرائين وابرهيم كبير طائفة اليهود السامرة وسئلوا عن العهد المكتتب على اسلافهم فلم يعرفوا ودار الكلام في المجلس في ما يؤمرون بهِ الى ان انتضت الآراء السعيدة بتجديد العهد عليهم على وفق المنقول عن امير المؤمنين عمر بن الخطاب ... وفوّض السلطان لشيخنا (ابن حجر قاضي الشافعية) الكلام فيهِ وان يتوجهوا في خدمتهِ إلى بيتهِ وانفضّ المجلس ولما حضروا بباب شيخنا استدعاهم الى بيت يديهِ ثم ارسلهم الى القاضي المالكي فاشهدوا على انفسهم ان كلا منهم ألزم نفسهُ الزامًا شرعيًا انهُ لا يجدّد في كنيسة لهُ ولا في قلاية ولا في صومعة ولا في بيعة بناء ولا غيرهُ ولا يرمّ ما خرب او تعيّب من جدرانها واخشابها ... ومن خالف ذلك او شيئًا منهُ كان جزاؤهُ ان يخرب السلطان جميع تلك الكنيسة او الدير او القلاية او الصومعة او البيعة التي يفعل فيها ذلك " . وازيلت العهد من الكنيسة المشار اليها آنفًا فاقاموا بدلاً منهم عمدًا من جبس واجرّ باذن من بعض النواب الشافعية فاجتمع السيد شهاب الدين النعماني بالقاضي ولي الدين السفطي وابلغا السلطان خبرها فامر بهدم الكنيسة كلها فهُدمت

وبلغ ملك الحبشة ما كان يحلّ بنصارى مصر فبعث الى السلطان بهدية فاخرة من الذهب والجواري وكتب اليهِ كتابًا طويلاً اكثر فيهِ الثناء عليهِ وذكّرهُ بالعهود والمواثيق التي كانت بين ابيهِ وجدهِ و بين الملك الظاهر برقوق وابنهِ الناصر والتمس منهُ ان يرفق بالنصارى . قال " وابونا البطريك واخواننا النصارى الذين هم الآن تحت عن سلطانكم ومملكتكم الشريفة نفر قليل جدًا ضعفاء الحال ساكنين في كل الجهات ولا يمكن ان يكونوا قدر قيراط من المسلمين القاطنين باقليم واحد من بلادنا ونحن لهم ولملوكهم مالكون ولم نزل نحسن اليهم في كل وقت وحين ومن تقدّم من آبائنا واجدادنا لا يزالون بهم متوحدين ولانفسهم واموالهم حافظين ونحن على ما كان عليهِ آباؤنا " والكتاب طويل وقد اجابهُ عليهِ السلطان بكتاب قال المؤلف " . اقف على تفصيلهِ الاّ انهُ يتضمّن على ما سمعت عدم الموافقة في جميع ما سأل فيهِ لكون نصارى الديار المصرية قد كثر تعديهم واستطالتهم بالمبالغة في البناء واحداث الكنائس ونحو

ذلك . فلم يرتض الامين هذا الجواب بل عوّق القاصد وتهدّده " . ثم ذكر فظائع كثيرة جرت قبل ذلك بايجاز فقير قام في الجامع الازهر وصاح اهدموا كنائس الكفر والطغيان فهدمت كنائس كثيرة في القاهرة والاسكندرية وفي الوجهين القبلي والبحري وكان ذلك في عهد الناصري محمد بن قلاوون

وذكر في حوادث سنة ٨٤٨ " ان السلطان ضرب الحب ابا البركات الهيتمي احد الاعيان من الوزّاب الشافعية ضرباً بالغاً وامر بايداعه المقشرة حبس اولى الجرائم لانهُ اثبت شيئاً استراب السلطان فيهِ " . هنا عالم من كبار العلماء يهان ويضرب ويحبس لريبة لا صحة لها كما تبيّن بعد ذلك

وذكر في حوادثها ايضاً ان قاصد ملك الشرق القان معين الدين شاه رخ بن تيمورلنك قدم ومعهُ كسوة للكعبة فاحتفل السلطان بهِ احتفالاً عظيماً وقرأ كتاب مرسلهِ . ولما رجع القاصد من حضرتهِ هو والرجال الذين معهُ ووصلوا الى باب القلعة اخذهم الرجم من العامّة والسب واللعن واستمرّوا في اثرهم كذلك الى ان وصلوا الى محل نزولهم في بيت الجمالي بالقرب من مدرسة الجمالية ثم هجم عليهم المماليك والعوام والعبيد وهم خلق كثير فكبسوا بيتهم ونهبوا جميع ما معهم وهو شيء كثير من نفائس كتب العلم والذهب والنقد والفصوص واللآلىء والشقق الحرير والخمل والمسك واللازورد المعدني وانواع الفراء وغير ذلك من امتعة البلاد والخشوا حتى اخذوا خيلهم وبغالهم وحميرهم . واقتصّ السلطان من الذين فعلوا ذلك اقتصاصاً صارماً لكن فعلهُ لا ينفي ان عامّة الناس كانوا مثل فوضى لا سراة لهم

وذكر في حوادث سنة ٨٥٤ " ان السلطان امر بايداع القاضي بدر الدين الاردبيلي الحنفي في المقشرة هو وجماعة من الشهود منهم ابو الفتح الصحراوي بعد اهانة كبيرة لانهُ اثبت بشهادة المشار اليهم وقفيّة بيت كان القرض اخذهُ لانسباي احد مماليك السلطان وسقاتهِ . ولما كان الغد نودي على ابي الفتح المذكور بعد ضربهِ ضرباً مبرحاً " . كل ذلك لانهم قالوا ان الدار موقوفة

وفي الكتاب اشياء كثيرة من هذا القبيل عدا ما فيهِ من الادلّة الكثيرة على ان خطط الاحكام كانت تسند الى غير مستحقيها وكان المرء يبيت في اعلى المناصب فيصبح مغضوباً عليهِ مطروحاً في السجن وقلما اقام واحد في منصب سنة كاملة

ثم ان مناصب الحكومة كلما كانت تأيدي الغرباء كما يظهر من اسمائهم والسلطان كان الظاهر ابو سعيد جقمق الشركسي وكان رجال دولتهِ لما استهلت سنة ٨٤٥ الاتابك يشبك السودوني

فامير المجلس جرباش الكريمي ويلقب ياشوق وامير اخور كبير فرانجا الحسني . وراس نوبة قرباي التمرخاوي والدوادار الكبير تغري بردي البكتمري وصاحب الحجاب تنبك البردبكي . وهلم جرًّا من الاسماء الاعجمية . وكذلك ولاة سائر الاقليم العربية كانوا من الاعاجم الأ القضاة فان اسماءهم عربية تدلُّ على انهم من العرب او من الامم التي امتزجت بهم

الاَّ ان تلك الايام على ما كان فيها من الاستبداد والظلم وضياع الحقوق لم تخلُ من الفضلاء النبلاء كالشهاب بن حجر العسقلاني شيخ صاحب الكتاب وهو القائل

ثلاث من الدنيا اذا هي حصلت لشخص فلن يخشى من الضرّ والضير
غنًى عن بنيها واللامة منهم وصحة جسم ثم خاتمة الخير

ولنجتنا من هذا الرجل انهُ سبق عصاه اوربا الدين ذُكروا في خطبة السر وليم روبرتس المدرجة في صدر هذا الجزء الى ترك المطات والاعتماد على الاتقان فقد قال السخاوي "قال التقي المقريزي في الخطط من المعتبر الذي جرَّبتهُ وجرَّبهُ قبلي من اخذت علمَ ذلك عنهُ واخبرني به عن تجرّب ان ينظر اول يوم من مسري كم بلغ النيل في زيادته من الاذرع والاصابع فيزاد على ذلك ثمانية اذرع سواء فما بلغ فانهُ نهاية زيادة النيل في تلك السنة وقد ردَّ هذه القاعدة شيخنا كما قرأتهُ بخطهِ فقال هذا من اعجب ما وقع لصاحب هذا الكتاب فان هذه القاعدة منخرمة طردًا وعكسًا لانهُ في سنة الفلاء سنة ست وثمان مئة كان في اول مسري قد زاد على اثني عشر ذراعًا ولم يكمل تلك السنة سبعة عشر فلو زيد على الاثني عشر ثمانية لبلغ عشرين ولم يقع ذلك. وكان في سنة خمس عشرة قد اكمل ستة عشر ذراعًا في اول يوم من مسري فلو زاد بعد ذلك ثماني اذرع لبلغ اربعًا وعشرين ذراعًا ولم يقع ذلك "

ولم تخلُ تلك الايام ايضًا من شيء من الاهتمام بتنشيط الصنائع فقد جاء في هذا الكتاب "ان الرماة قدموا من الاسكندرية مرة ومعهم صفة قلعة من خشب فقدَّموها الى السلطان ورموا عليها بحضرته بقوس الرجل فخرج منها صورة شخص بسيف وترس فرمى عليهِ عبد صغير فضرب رقبتهُ بالسيف . فامر السلطان بان يخلع عليهم ورسم لهم بجامكية "

ولغة الكتاب كثيرة الحزو يظهر منهُ ان العربية كانت متهنة في عصر السخاوي اكثر مما هي متهنة الآن وان الالفاظ الاعجمية كانت قد شاعت فيها كل الشيوع

ولم يكتفِ السخاوي بذكر الحوادث التي حدثت في تلك السنوات الاثني عشرة بل ترجم من مات فيها من العلماء والكبراء . وربما نظرنا في هذه التراجمات في فرصة اخرى